الفصل الحادي عشر

الوزارة

للإصلاح خطة وخطوات

لا شك أن الضرورة تحتم على كل منا وجود رؤية واضحة يضعها نصب عينيه للدور الذي يود أن يقوم به والأهداف التي يرغب في تحقيقها من خلال حياته. وحتى يمكن إنجاز أي مشروع من المشروعات، لا بد من اتخاذ خطوات فعالة تتم في توقيتات معينة وفقا لتخطيط يضعنا على بداية طريق الإصلاح سواء كان فيما يخص علاقتنا بالله تبارك وتعالى، أو على المستوى المادي الملموس. وبناء عليه، يجدر بنا أن نبدأ في تدارس أي مشروع معطل، وذلك بهدف وضع خطة نستطيع من خلالها الوصول إلى الأهداف المنشودة.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

عند اتضاح نية أمورى في احتلال مصر احتلالا كاملا، أرسل الخليفة الفاطمي العاضد إلى نور الدين محمود يستنجد به، فأرسل السلطان النورى إلى مصر جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه ومساعده صلاح الدين الأيوبي. ولكن عندما وصلت إلى أمورى الأخبار التي تفيد بأن الجيش المسلم على مشارف مصر، أمر الأمير الصليبي بسحب كافة القوات دون انتظار لقتال، وتركت مصر بأيدي أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي. سبحان الله تعالى الذي يقدر الأمور وييسر لها الأسباب فيتحقق ما يريده رب العالمين. وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: "يعجب

الله من أقوام يساقون إلى الجنة بالسلاسل". ولعل هذا الحديث وغيره ينطبق على صلاح الدين الأيوبي الذي رفض في بداية الأمر أن يعود إلى مصر.

"افعل ما شئت، كما تدين تدان"[1]

في ذلك الوقت، كان شاور لازال وزيرا لمصر بعد كل الأفعال التي تتنافى مع الإخلاص للأمة والوطن ، وذلك لأن الخليفة الفاطمي العاضد لم يكن بالقوة التي تمكنه من عزل شاور. وبالتالي كان الحاكم الفعلي لمصر في ذلك الوقت هو من كان وزيرا لها. وكالعادة، جنح شاور إلى الخيانة حيث أخذ في تدبير مؤامرة لقتل أسد الدين شيركوه والأمراء النوريين أثناء تواجدهم بحفلة يدعوهم إليها في قليوب. سبحان الله، في تلك الأثناء، وصلت أخبار المؤامرة التي كان يعدها شاور إلى ابنه الكامل الذي كان رافضا تماما لأفعال والده، فأصر أن يواجه شاور فدار بينهما ما يلى:

"(الكامل) : والله لأخبرن أسد الدين شيركوه.

(شاور) : إن أسد الدين سيقتلنا جميعا.

(الكامل) : حقيقة، إن يقتلنا أسد الدين شيركوه فقد قتلنا بأيد إسلامية ، وتظل أرض الإسلام تحت إمرة المسلمين. ولكنا لن نترك البلاد للصليبيين ، فوالله ما منعهم من دخول مصر إلا مقدم أسد الدين. والله ما أساعدك على تسليم مصر للصليبيين".

ونظراً لما دار بينه وبين ابنه من حديث، تراجع شاور عن تنفيذ مؤامرته. وفى الواقع، فإن تلك الشخصية سينظر لها التاريخ كأسوأ ما يكون حيث إن صاحبها تنكر لنعم الله عز وجل عليه إذ وضعه في منصب من الممكن استخدامه في طاعة الله

(١) حديث شريف.

تبارك وتعالى وخدمة دينه الحنيف الإسلام. ولكن تلك النوعية من الشخصيات تعبث في دنياها ولا تعمل لآخرتها. وفى نهاية المطاف صدر قرار من العاضد بقتل شاور لخيانته العظمى حيث إن شاور كان قد استنجد بأمورى من جديد ووعده بتسليمهم مصر على أن يكون وزيراً للصليبيين. ولذا لم يكن هناك بد من إعدامه فلقي جزاءه العادل مقابل ما أقدم عليه من أفعال ذميمة.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

فى تلك اللحظة، لم يكن أمام الخليفة العاضد إلا أن يختار أسد الدين شيركوه وزيراً للبلاد حيث إنه هو الذي أنقذ مصر من الصليبيين. سبحان الله العلى العظيم! لم يبق شيركوه في منصبه سوى أيام قليلة مات بعدها. ومن هنا نأخذ العبرة التي خلق من أجلها البشر، إلا وهى عبادة الله عز وجل! ولذلك، ينبغي على الفرد فينا أن يتفهم الدور المطلوب منه ليؤدى تلك العبادة حقها، وأن يحدد أهدافه الشخصية التي يسعده أن يحققها. وكذلك كان الحال بالنسبة لأسد الدين شيركوه الذي أحب مصر وأراد أن يتخذ منها جنداً يعينوه على فتح بيت المقدس. إذن، فقد أدرك ذلك الرجل أن فتح مصر وإعادة قيادتها إلى السلوك القويم كان هو الدور المطلوب منه القيام به في الحياة من خلال عبادته لبارئه. وبما أن الأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى، فلا عجب إذن أن يجوب أسد الدين شيركوه البلاد من أقصاها إلى أقصاها حتى يتحقق ما قدره الله أن يتم على يديه. فقد انتقل أسد الدين من بغداد إلى الموصل ثم إلى بعلبك، ومن بعدها إلى دمشق وحلب وحمص، ثم يعود إلى دمشق، حتى ينتهى به المطاف في القاهرة ليموت بها بعد أن فتحها ليسلم الراية بعد ذلك لأمير جديد في مصر. كانت تلك دورة حياة أسد الدين شيركوه التي انتهت بعد أن أداها وهو مدرك لدوره فيها وضرورة القيام به. فهل يعرف كل منا دوره في الحياة أم مازال يبحث عنه؟

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ [الإسراء:١٣] .

ما إن مات أسد الدين شيركوه حتى أصبح من الضروري تعيين وزير جديد لمصر. وبدأ تقييم الأمراء النوريين لاختيار أحدهم وزيرا. وبعد ثلاثة أيام تم تعيين صلاح الدين وزيرا لمصر. وكان ذلك التعيين محل تساؤلات من الأمراء الآخرين إذ أن صلاح الدين لم يكن تعدى الثانية والثلاثين من عمره بعد، وخاصة أنه كان هناك من يكبره سنا ويفوقه خبرة مثل عين الدولة اليروقى ، وقطب الدين ينال، وشهاب الدين الحاريمى خال صلاح الدين الأيوبي، وشرف الدين برغش الذي أصبح ذا مكانة بعد موقعة "البابين". إذن، فيبدو أن اختيار صلاح الدين للوزارة من بين كل هؤلاء أصحاب الخبرة جاء بناء على ترتيب معين. وفى الواقع فقد أراد الله تعالى أن يكون لكل من عيسى الهيكارى وبهاء الدين قراقوش دوره المؤثر في تولية صلاح الدين منصب الوزارة. فأما عيسى الهيكارى، فكان أقرب أصدقاء أسد الدين شيركوه. وأما بهاء الدين قراقوش، فينبغى التوقف عند اسمه لتصحيح ما أشيع عن هذا الرجل من ظلم أو قهر، فلقد كان بهاء الدين بعيداً كل البعد عن صفات الحكم الجبرى أو القصرى. وقد بادر كل من عيسى وبهاء الدين بالتفاوض مع الأمراء من أجل تعيين صلاح الدين أميراً على مصر إذ أنهما رأيا أنه كان الأصلح على الإطلاق لتولى وزارة مصر في ذلك الوقت. وكانوا قد بدأوا بعرض الفكرة على صلاح الدين نفسه الذي أبدى رفضاً مبدئياً نظراً لطبيعة التعفف التي كان قد نشأ عليها، فلم يكن ليهرول وراء سلطة أو وزارة أو مكانة. ويذكرنا هذا الموقف بسعيد بن عاصم أحد صحابة رسول الله ﷺ، والذي عينه عمر بن الخطاب ﷺ أميراً على حمص بالشام، فإذا به يقول لأمير المؤمنين: "لا تفتنني في ديني يا عم!". ولقد رهب سعيد الموقف لما يلقيه عليه ذلك التكليف من مسئولية عن الرعية من رجال ونساء وأطفال وشيوخ. وكان هذا تماما هو ما شعر به صلاح الدين الأيوبي عندما عرض عليه أمر توليته وزارة مصر، فالمسئولية كبيرة وينبغي لمن يقبلها أن يرتفع إلى مستواها. وما

أشبه وأقرب ما كان مطلوبا من سعيد بن عاصم وصلاح الدين الأيوبي بما هو مطلوب من كل منا عند تناوله لعرض هذا الكتاب من مهام من شأنها إصلاح أحوال الرعية والأمة. فكل مهمة ذكرت على مدار فصولنا هذه، إنما هي نتاج ما سيق من آيات القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، وروايات الصحابة والتابعين والسلف الصالح. إذن فالمسئولية كبيرة وسيسأل عنها كل منا يوم القيامة. فالمقابل المؤثر لقراءة هذه الفصول يكمن في التطبيق العملي لما ورد بها من قيم ومثل إسلامية. وبما أن من علم ليس كمن لم يعلم، فالمطلوب أيضا إعلام الآخرين الذين لم يقرؤوا هذا الكتاب بما ينبغي على كل مسلم القيام به من إصلاح للذات حتى تستقيم أحوال أمة النبي محمد ﷺ.

الذين لم تفرهم الدنيا

لقد استطاع عيسى الهيكارى أن يقنع معظم الأمراء النوريين بضرورة تزكية صلاح الدين لمنصب الوزارة. وفى نفس الوقت، رأى الخليفة العاضد في صلاح الدين شابا يسهل التأثير على تفكيره، ولا ينبهر بنفوذ الوزارة فيفسد كما فسد الوزراء السابقون من أمثال ضرغام وطلائع وشاور. وعليه، قبل الخليفة العاضد تعيين صلاح الدين وزيراً أولا لمصر ليصبح اسمه "المظفر صلاح الدين الأيوبي".

بالقطع، هذا التعيين لم يلق قبولا لدى من كانت قلوبهم طامعة في المنصب الذي تولاه صلاح الدين، غير عابئين بمصلحة الأمة، وإنما مكتفين بالتفكير الأناني الذي لا يحكمه سوى حب الذات أيا كانت الصفات والعلات. ولذا رفض عين الدولة اليروقى وقطب الدين ينال تعيين صلاح الدين وزيراً، وانسحبا إلى الشام عائدين إلى نور الدين محمود. وكان الخامس والعشرون من جمادى الآخرة سنة خمسمائة وأربع وستين هو اليوم الذي شهد تولى صلاح الدين وزارة مصر مقلداً من قبل الخليفة العاضد في احتفال أسطوري رغم معاناة الرعية من فقر شديد. وقد

أراد الخليفة العاضد إظهار واجهة الخلافة بمظاهر الأبهة والزينة الدنيوية، ويروى ابن الأثير عن الجواد المرصع بالجواهر الذي أهداه العاضد لصلاح الدين الأيوبي في تلك الليلة. وقد وصل ثمن تلك الجواهر التي زينت بها رأس وأرجل وسرج ذلك الجواد إلى مبلغ ألف ألف (مليون) دينار ذهبية. وكان كل ذلك البذخ يحدث في الوقت الذي لا يجد فيه الرعية قوت يومهم! وأين تلك الحال من مقولة عمر ابن الخطاب ﷺ:"بئس الحاكم أنا إن شبعت ورعاياي جياع". وكان الخليفة عمر ابن الخطاب قد ضرب المثل في عام المجاعة إذ كان يأكل كأقل فرد من الأمة. وهكذا لم يكن منصبه كحاكم يحول بينه وبين تقوى الله عز وجل. واتباعا لنفس النهج، ما كان من صلاح الدين الأيوبي إلا أن وزع ثمن الجواهر كلها على شعب مصر بمناسبة تعيينه وزيراً عليهم.

أخلاقيات السلطة في الإسلام

ولم يلبث صلاح الدين أن تولى الوزارة حتى شرع في إحداث تغييرات جذرية يعيد بها الأمور إلى الشرعية. وما كان ذلك إلا إيذانا باعتراف داخلي يلزم به نفسه قبل الغير على الارتقاء في التعامل مع الأمور كلها بصفة عامة وبشأن علاقته بالله جل علاه بصفة أولى. وبناء عليه، بدأ بإحاطة نفسه بكوكبة من العلماء ليعينوه على المسئولية الجديدة. وبالتالي، أصبح عيسى الهيكارى الذراع الأيمن لصلاح الدين الأيوبي، كما صار بهاء الدين قراقوش من المقربين له أيضا ولاسيما أنه المهندس المنفذ لقلعة صلاح الدين وسور مجرى العيون لتوصيل ماء النيل إلى القلعة. وكذلك أدخل صلاح الدين تعديلا على نوعية الأنشطة التي يمارسها بصفة رئيسية حيث أصبح تنظيم وقته خاضع للمسئولية التي اختصه الله سبحانه وتعالى بها. وجانب آخر دخل تحت حيز التغير للأفضل هو زيادة تصدقه على المحتاجين والفقراء حتى أصبح عطاؤه في هذا المجال يشابه عطاء جمال الدين الأصفهاني، إذ أصبح بيت المال

مفتوح الأبواب لعامة الشعب، كما حرص على عدالة التوزيع حيث أصبح الفقير والغنى يتساويان في حقوق كثيرة منها المأكل والمأوى.

نجاح صلاح ... وحقد نجاح

وللأسف كان هناك من لا يعجبهم طريق الإصلاح الذي يسير فيه صلاح الدين ومنهم شخص يدعى مؤتمن الخلافة نجاح. ومرة أخرى يكون الاسم على النقيض تماما من الصفة الفعلية لصاحبه. وكان هذا الشخص يتولى منصبا حساسا داخل القصر الفاطمي، فبدلا من أن يعمل بما سمى ولقب به، تفتق ذهنه أن يدعو أمورى أمير بيت المقدس للقدوم إلى مصر وخلع صلاح الدين من الوزارة في مقابل عطية تقدر بخمسمائة ألف دينار ذهبية. ولكن المولى عز وجل كشف المؤامرة لصلاح الدين. ونظراً لطبيعة عمل صلاح الدين السابقة كمدير لأمن دمشق، كان له من الأشخاص من يطلعونه على غرائب المستجدات بين الرعية والتي قد تكون محل أذى للأمة. ومن هؤلاء من شاهد ذات مرة رجلاً بسيط المظهر يضع في قدميه حذاء غالى الثمن، فاستوقف الرجل وكانت المفاجأة أن ذلك الحذاء كان كعبه يحتوى على رسالة موجهة إلى أمورى يوعد من خلالها بأن يوضع تحت إمرته ثلث ملك مصر بالإضافة إلى خمسمائة ألف دينار ذهبية في مقابل القضاء على صلاح الدين الأيوبي. ولكن صاحب الحذاء رفض تماما الإخبار عن الشخص الذي كتب الرسالة. فبدأ رجال الأمن يبحثون بين كتاب الرسائل، وكان أمراً يسيراً نظراً لقلة عدد الكتبة وتميز الخط المكتوب به الرسالة. وتوصل رجال الأمن إلى أن كاتب الرسالة يهودي، فأحضروه واعترف أن مؤتمن الدولة نجاح هو من طلب منه كتابة الرسالة. والمفاجأة الكبرى في تلك اللحظات أن يدعو صلاح الدين اليهودي إلى الإسلام وأن تكلل هذه الدعوة بالنجاح فيعتنق اليهودي الإسلام، ويكون ذلك الموقف من صلاح الدين امتثالا لقول رسول الله ﷺ إذ قال :**"لأن يهدى الله بك**

رجلا خير مما طلعت عليه الشمس". وبالفعل، حسن إسلام هذا اليهودي وسافر إلى مكة وظل مجاورا للبيت الحرام حتى مات.

وإزاء ما أقدم عليه مؤتمن الخلافة نجاح من خيانة كان لابد من قتله. ولما كان مؤتمن الخلافة سوداني الأصل، فإن إعدامه أغضب الجنود السودانيين الذين قاموا بثورة قوامها خمسين ألف فرد ضد صلاح الدين الأيوبي. والغريب أنه في نفس الوقت بدأ الخليفة العاضد يقلق من تزايد حب الرعية لصلاح الدين، فأخذ يختار ما بين الإبقاء على السودانيين ومساعدتهم على التخلص من صلاح الدين وبين الإبقاء على صلاح الدين ودعمه لإخماد ثورتهم. ويشاء السميع العليم أن تصل إمدادات نور الدين محمود إلى صلاح الدين في صورة قوة عسكرية بقيادة أخيه طوران شاه ليتمكن صلاح الدين من القضاء على ثورة السودانيين تماما.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة]

سبحان الله، بذلك يكون صلاح الدين قد تصدى بفضل الله تعالى لوابل من المشاكل تمثلت في الغدر المتكرر لشاور، ثم خيانة مؤتمن الدولة نجاح، وأخيرا وليس بآخر، ثورة السودانيين. وتلك الابتلاءات تبعتها ثورة الجنود الأرمن الذين شعروا أن صلاح الدين كان على وشك أن يأخذ منهم ممتلكاتهم ليعيد توزيعها. وعلى سبيل المثال، فمن كان يمتلك من هؤلاء الجنود الأرمن ثلاثة قصور، أخذ منه صلاح الدين قصرين أودع ثمنهما بيت مال المسلمين. ونتيجة لذلك، أشعل هؤلاء الأرمن ثورة ضد صلاح الدين الذي استطاع إخمادها. ولكن ما لبث أن هب أيضا الإقطاعيون وأصحاب الثروات بالثورة على صلاح الدين والتي كان يتزعمها عمارة اليمنى. وللأسف، أقدم عمارة اليمنى على نفس الخيانة التي ارتكبها من قبله شاور ثم مؤتمن الخلافة نجاح، إذ أنه أرسل يطلب من أموري المجيء إلى مصر لتخليصها

من صلاح الدين الأيوبي. وكم كانت الأوضاع مقلوبة إذ يستسيغ البعض الغدر بالأخ المسلم الذي جاء في عون أخيه، بينما يفتح ذراعيه لعدو دينه وعدوه!

وإمعانا في محاولته للتخلص من صلاح الدين، بدأ عمارة اليمنى يغريه بفتح النوبة. وبالتالي، أرسل صلاح الدين جزءاً من الجيش إلى النوبة على أن يلحق بهم. ولكن، في نفس هذا الوقت وصلت إلى صلاح الدين الأخبار أن أمورى على وشك أن يشن حملة صليبية جديدة على مصر بجيش قوامه ثلاثون ألف جندي، بالإضافة إلى مجيء كل من الأسطول البيزنطي والأسطول الصقلي. ووجد صلاح الدين قواته موزعة على جبهتين، إحداهما في الجنوب عند النوبة، والأخرى في مواجهة القوة الصليبية القادمة. وبفضل الله تعالى، تيقظ ضمير أحد المشتركين في مؤامرة عمارة اليمنى، فأخبر صلاح الدين بما كان يحاك له من غدر. واستطاع صلاح الدين أن يقضى على عمارة اليمنى والخطر الذي كان يمثله.

دمياط ...!

ولكن الحملة الصليبية كانت في طريقها إلى مصر. وأخذ صلاح الدين يتساءل عن الطريق التي سوف تسلكه تلك الحملة. في المرة الأولى جاء أمورى إلى بلبيس، وفى الثانية إلى الإسكندرية. ولذلك، اعتقد صلاح الدين أنهم لا بد قادمون من أحد هذين الطريقين المعروفين لهم. وبناء عليه، شرع صلاح الدين في تعلية أسوار الإسكندرية وتقوية سلاسل بلبيس. ولكن، سبحان الله، وصلت الحملة الصليبية إلى دمياط. وكان ذلك بمثابة المفاجأة غير السارة لصلاح الدين حيث إن معظم قوات الجيش كانت متواجدة في الجنوب. وبدأ الشعب المصري يدافع عن دمياط، بالإضافة إلى أن سلسلة هذا الميناء حجزت سفن الأسطولين البيزنطي والصقلي. ولكن الجيش البرى الآتي من الفرما وعسقلان توغل داخل دمياط. وبدأت المعركة في حين كان صلاح الدين بالقاهرة ولا يستطيع تركها نظراً للاضطرابات التي

كانت تواجهها، كما لا يستطيع أن يستدعى القوات المتواجدة بالجنوب التي كانت تواصل بنجاح مهمة فتح النوبة. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتصدى فيها صلاح الدين للصليبيين وهو القائد الأعلى للقوات والوزير الأول لمصر، أي أن المسئولية كلها تقع على عاتقه. ومن جانبه، أسرع نور الدين محمود إلى العقبة وعسكر فيها منتظرا الحصول على أخبار من دمياط. وقد بدت علامات التأثر الشديد والتجهم على وجه نور الدين نظراً للحصار الذي كانت تتعرض له دمياط بجيش عدده يصل إلى ثلاثين ألف مقاتل، والأسطول البيزنطي يوشك أن يدخل الميناء. ومن الطبيعي أن يكون هذا هو شعور المسلم تجاه ما يتعرض له المسلمون من خطر في أي مكان.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]

لقد تصدى صلاح الدين الأيوبي في تلك الفترة لأوجه عديدة من الضلال والضياع. ولكن الأمر الذي يدعو للتفاؤل هو أن المجتمع نفسه كان راغباً في التخلص من السلبيات بكافة أشكالها. ولذلك، فالمطلوب من كل فرد أن يسعى لمحاربة أي صورة من صور الفساد أو التقصير المنتشرة في أوجه الحياة العامة. فلنتخذ من صلاح الدين الأيوبي مثالا للإيجابية والتفاعل الحسن مع السلبيات، إذ أنه لم يهرب إلى الشام تاركا وراءه كل هموم الشعب المصري، وإنما تصدى لها بكل حسم حتى نصره الله نصراً مبيناً.

***